ضابط الصوت وأسراره البيانية
في الحديث النبوي الشريف

الأستاذة الباحثة: نزهة الصافي
جامعة القاضي عياض، كلية اللغة العربية بمراكش
المغرب

مقدمة:

جاءت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في نظم بديع وتأليف عجيب، مخالف لغيره من أساليب البلغاء والفصحاء، فكانت أحاديثه صلى الله عليه وسلم لحمة واحدة، ونسيجا واحدا، لا خلل فيه ولا ثغرات كالعقد المنضود، ويرجع ذلك إلى الكيفية التي نُظم بها هذا المتن، والمواد التي بُني بها، بدءا من الصوت الذي يشكل اللبنة الأولى في بناء الكلام، فإنْ سَلِمَ الجزء سَلِمَ الكل، واختياره صلى الله عليه وسلم للأصوات لم يكن اعتباطيا، وإنما كان يختار من الأصوات ما يخدم المعنى ويعبر عن المقصد، وبالتالي فإن عملية فقه الحديث النبوي الشريف وفهمه إفهامه لابد لها أن تبدأ من أصغر وحدة لغوية دالة، وهو ما يدرس تحت مسمى المستوى الصوتي، الذي سنحاول أن نسلط عليه الضوء في هذا المقال، من خلال السير وفق الهيكلة الآتية:

المحور الأول: مدخل نظري

1. مفاهيم الدراسة (الصوت، البيان)
2. الصوت والبيان (أية علاقة؟)

المحور الثاني: دراسة تطبيقية

1. البيان بالأصوات المجهورة والشديدة.
2. البيان بالأصوات المهموسة والرخوة.
3. البيان بالأصوات المفخمة والشديدة.

خلاصة

المحور الأول: مدخل نظري

1. مفاهيم الدراسة

1.1. مفهوم الصوت:

لغة: تنحدر جذور هذا المصطلح من مادة (ص و ت)، والصوت في اللغة الجرس والغناء، يقال: «صَوَّتَ فلانٌ (بفلان) تصويتا أي دَعاه. وصاتَ يصُوتُ صوتاً فهو صائت بمعنى صائح. وكل ضَرْبٍ من الأُغنيات صَوتٌ من الأصوات. ورجل صائت: حَسَن الصوت شديدُه. ورجل صَيِّتٌ: حَسَنُ الصَّوتِ. وفلان حَسَن الصِّيت: له صِيتٌ وذِكْرٌ في الناس حَسَنٌ»[1].

وقال ابن منظور: «الصوت الجرس معروف مذكر، وإنما يؤنث من أجل إرادة الضوضاء والجلبة على معنى الصيحة والاستغاثة، وهذا قبيح عند ابن سيده، وجمعه أصوات»[2].

أما اصطلاحا فقد عرفه الجاحظ بأنه «آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا أو منشورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف»[3].

ويتم تحقق الصوت عن طريق الخروج من الرئتين بداية، ثم المرور بمواضع يشكل من خلالها مقاطعَ يُسمع بموجبها صوتا. وقد عرف ابن جني الصوت تعريفا يعبر عن عملية تحقق الصوت وحدوثه بقوله: «اعلم أن الصوت عرض يخرج من النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا»[4].

وعرفه المحدثون بأنه «عملية نطقية تدخل في تجارب الحواس، وعلى الأخص السمع والبصر، يؤديه الجهاز النطقي حركة، وتسمعه الأذن، وترى العين بعض حركات الجهاز النطقي حين أدائه»[5].

2.1. مفهوم البيان:

لغة: تدور مادة (ب ي ن) في عمومها حول الوضوح والإظهار، الذي يتطلب وجود الذكاء مع الإفصاح حتى يتم إظهار المعنى بأبلغ لفظ، وهذا المعنى عبر عنه تعريف ابن منظور: «البيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور، وقيل معناه: إن الرجل يكون عليه الحق وهو أقوم بحجته من خصمه، فيقلب الحق ببيانه إلى نفسه، لأن معنى السحر قلب الشيء في عين الإنسان وليس بقلب الأعيان...»[6].

يتضح أن مفهوم البيان عند ابن منظور يأتي بمعنى الفصاحة التي تشترط الذكاء، وكذلك إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وكأنه هنا جعل البلاغة وسيلة يستند إليها البياني للكشف عن المعنى المراد وإظهاره.

اصطلاحا: ظل المعنى اللغوي لمادة (بين) يلازم مفهوم البيان حتى تحدد في شكل مصطلح بلاغي؛ إذ نستشف أن مباحثه في معظمها تدور حول وضوح الدلالة أو خفائها، ولعل أول تعريف يمكن أن نستهل به هو التعريف الذي قدمه الإمام الشافعي في رسالته، وقد كان له فضل السبق في إرساء الدعائم الأولى لهذا المفهوم.

يعرف الشافعي البيان بقوله: «والبيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب»[7].

وعلى هذا فالبيان عند الشافعي جمّاع لمعان متعددة، وهذه المعاني على اختلافها أصولا وفروعا، فإن بينها خيط ناظم هو اللسان العربي، وفقه أسرار هذا اللسان والعلم بأحواله ولطائفه يُعين على الاهتداء إلى هذه المعاني وإخراجها من حيز الغموض إلى حيز الوضوح والتجلي، على اختلاف درجاتها في الوضوح.

ويعرف الجاحظ البيان بقوله: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع إليها إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[8].

ويرى الجاحظ أن وجوه البيان تنحصر في خمسة أمور، يقول: «وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقتصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مختلفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرحا»[9].

يتضح أن مفهوم البيان عند الجاحظ لا يختلف عن مفهومه عند الشافعي، فهو مفهوم عام يُطلق على كل ما من شأنه أن يُظهر المعنى ويبين عنه بأية دلالة من دلالات اللفظ أو الإشارة أو الخط أو العقد أو الحال.

وعليه فإن البيان عند الجاحظ عام يضم جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير ولفظ، ذلك أنه يستوعب جميع الوسائل التعبيرية التي من شأنها الإبانة عن المعنى ونقله من حال الاختزان إلى حيز التجلي.

2. الصوت والبيان (أية علاقة؟):

يُعد الصوت أول لبنة من لبنات بناء أي خطاب، والأساس الذي يقوم عليه صرحه، ولو اختل هذا الأساس لسقط البناء، وهذا ما جعل ابن جني يعرف اللغة انطلاقا من الصوت بقوله: «أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[10]. والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هنا هو: هل بإمكان الصوت أن يؤدي وظيفة بيانية؟

وقد تفطَّن علماؤنا القدامى لعلاقة الصوت بالمعنى ومن أبرزهم ابن جني في مؤلفه "الخصائص"، ومما يبرز الوظيفة البيانية للصوت عنده ما أورده في تعليقه على قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}[11]، يقول: «فهذا في معنى تهزّهم هزًّا، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ»[12]. والذي يتضح أن ابن جني يصرح بعلاقة الصوت بالبيان من خلال تعليقه على الآية، وربطه لمعنى صوت الهمزة بسياق الآية الذي يوحي بشدة "القلق والإزعاج"[13]، حينما قال: «لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ»[14].

واعتماد ابن جنى للفظ "أقوى" إنما يعني به اجتماع صفتي الجهر والشدة في صوت الهمزة، فكان أحق بالاستعمال حسب ما يقتضيه سياق الآية، بدل صوت الهاء التي يتميز بالهمس والرخاوة وهما صفتا ضعف.

ويشير ابن جني في باب آخر سماه "إمساس الألفاظ أشباه المعاني" إلى العلاقة التي تجمع بين الصوت كوحدة لغوية وبين الوظيفة البيانية الخاصة به، يقول: «اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته. قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: صَرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صرصر»[15]. ويتضح مما أورده الخليل

العلاقة التلازمية بين الصوت والمعنى، فلفظ "صرَّ" هو لفظ محاكٍ لصوت الجندب المستمر، ولفظ "صرصر" يحاكي صوت البازي الذي يُسمع فيه تقطيع.

ويورد ابن جني سلسلة من الأمثلة التي تكشف علاقة الصوت بالبيان، يقول: «ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سَمْت ما حدّاه، ومنهاج ما مثّلاه. وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة، والصعصعة، والجرجرة، والقرقرة، ووجدت أيضًا "الفَعَلى" في المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة نحو: البشكى والجمزى والولقى... فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر»[16].

فالأصوات تؤدي دورا في البيان، وطبيعة الأصوات المستعملة تختلف باختلاف السياق ومقتضيات أحوال المخاطَبين، فبعض المقامات تستدعي في بيانها اعتماد أصوات مجهورة، وأخرى تستلزم أصواتا مهموسة، وأخرى شديدة، وأخرى رخوة...

يقول ابن جني في هذا السياق: «إن كثيرًا من هذه اللغة وجدته مضاهيًا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا قضم في اليابس وخضم في الرطب؛ ذلك لقوة القاف وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف، وكذلك قالوا: صر الجندب، فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته»[17].

فالخاء في "خضم" صوت رخو، وبالتالي جاء الفعل "خضم" للدلالة على "أَكلُ الشَّيْءِ الرَّطْب خَاصَّةً"[18]، والقاف في "قضم" صوت شديد ومن ثم جاء للدلالة على "أكل الشيء اليابس"[19]، والحاء في "نضح" لرقتها دلت على "تسرب السائل في بطء"[20]، والخاء في "نضخ" لغلظتها جعلت الفعل "نضخ" دالا على فوران السائل في قوة وعنف.

المحور الثاني: دراسة تطبيقية

أولا: البيان بالأصوات المجهورة والشديدة

- النموذج الأول: قال البخاري: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجِيءُ الدَّجَّالُ، حَتَّى يَنْزِلَ فِي نَاحِيَةِ المَدِينَةِ، ثُمَّ تَرْجُفُ المَدِينَةُ ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»»[21].

يبين الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الرجفة التي كانت تصيب المدينة عندما يأتي الدجال، إذ يخرج عنده جميع الكفار والمشركين، فتبقى المدينة موطنا خالصا للأتقياء فقط، ولبيان هذا المقصد ارتكز الحديث على لفظتي (ترجف/ رجفات)، وذلك لأن نسيجهما الصوتي الذي هيمن فيه صوت الراء والجيم- وهما صوتان مجهوران- قد بيَّن حالة "الاضطراب الشديد"[22] التي تشهدها المدينة، ومما أبان عن ذلك الصفات التي يتسم بها صوت الراء وصوت الجيم؛ فالراء «صوت مكرر، لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك، مما يلي الثنايا العليا يتكرر في أثناء النطق بها، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقا لينا يسيرا مرتين أو ثلاثا، لتتكون الراء العربية»[23]، فأبان الاهتزاز الشديد الحاصل من تكرار صوت الراء عن الهزات الناشئة عن الرجفة، كما ساهم صوت الجيم-"وهو صوت مجهور شديد"[24]- في رسم صورة تلك الرجفة، وحالة الهلع والاضطراب التي أصابت أهل المدينة.

- النموذج الثاني: قال البخاري: «عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»»[25].

أبان الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن أبغض الرجال إلى الله وأحقهم بغضبه ولعنته، وهما "الألد الخصم"؛ أي الشديد المراء، فالألد يعني «الصعب الذي كلما ذكرت له شيئاً حمله على محمل آخر، أو قال: نعم هذا صحيح لكن ربما... و"الخصم" يعني: الذي يخصم

غيره لكن بالباطل... وهذا يقع كثيراً خصوصاً فيمن أعجبوا بأنفسهم ورأوا أنهم أصحاب الرأي والعقل والعلم، فتجدهم إذا حاجهم أحد في ذلك جعلوا يأتون بالأشياء البعيدة والاحتمالات البعيدة من أجل إقحام الخصم والانتصار لأنفسهم»[26].

ولأداء الوظيفة البيانية في هذا الحديث النبوي الشريف اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم تشكيلا صوتيا يناسب مقصده، معتمدا في ذلك تغليب الصوامت المجهورة والشديدة، فقد ترددت الصوامت المجهورة تسع عشرة مرة كالآتي: النون (مرتان)، الباء (مرة واحدة)، الغين (مرة واحدة)، الضاد (مرة واحدة)، الراء (مرتان)، الجيم (مرة واحدة)، اللام (سبع مرات)، الهاء (مرة واحدة)، الدال (مرتان)، الميم (مرة واحدة). في حين لم يتجاوز تردد الصوامت المهموسة الست، كان توزيعها كالآتي: الهمزة (أربع مرات)، الخاء (مرة واحدة)، الصاد (مرة واحدة).

وفيما يتعلق بصفتي الشدة والرخاوة، فقد كانت صفة الشدة هي الغالبة؛ حيث تشكل الحديث من تردد ثمانية صوامت شديدة، وهي (الهمزة، والباء، والضاد، والدال) وأربعة صوامت رخوة وهي (الغين، والهاء، والخاء، والصاد). واعتماد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا التوزيع الصوتي كان لغاية بيانية، فتغليبه للأصوات المجهورة والشديدة كان له إيحاء بمعاني الألفاظ التي انبنى عليها الحديث (أبغض، الألد، الخصم)، لأن البغض والخصومة يناسبهما توظيف الأصوات المجهورة والشديدة، لا المهموسة والرخوة.

- النموذج الثالث: قال البخاري: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[27].

في هذا الحديث النبوي تهديد ووعيد لمانع الزكاة، الذي يكنز المال ولا يؤدي زكاته، هذا المال الذي يتحول إلى حية متسلطة تنقض عليه، «يحاول الفرار منها فتطوقه، وتلتف حول رقبته، ثم تأخذ بشدقيه فيفرغ سمها نارا مذابة، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم، وتضيف إلى العذاب الجسمي عذابا نفسيا، تفزيعا وتوبيخا، تقول له: أنا مالك الذي كنزته لتتنعم به، أنا كنزك الذي حرمت منه الفقير ليزيدك نعيما، ها قد لقيت عاقبة كنزك عذابا بنفس كنزك»[28].

ولأداء الوظيفة البيانية في هذا الحديث النبوي الشريف عمد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى استعمال الأصوات التي تناسب طبيعتها ذلك الموقف الرهيب الذي يكون فيه مانع الزكاة، ولذلك نجد الأصوات الشديدة والمجهورة قد طغت على الأصوات الرخوة والمهموسة، مما جسد بدقة فظاظة المشهد وشدته من خلال عبارة (شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة)، فقد تضمنت أحد عشر صامتا مجهورا تردد عشرين مرة موزعة على الشاكلة الآتية: الجيم (مرة واحدة)، العين (مرتان)، الراء (مرة واحدة)، اللام (مرتان)، الهاء (مرتان)، الزاي (مرة واحدة)، الباء (مرتان)، النون (مرتان)، الياء (مرتان)، الواو (ثلاث مرات)، الميم (مرتان). فيما لم يتعد عدد الصوامت المهموسة خمسة ترددت سبع مرات هي: الشين (مرة واحدة)، الهمزة (مرة واحدة)، القاف (ثلاث مرات)، التاء (مرة واحدة)، الطاء (مرة واحدة).

أما فيما يتعلق بصفتي الشدة والرخاوة، فقد اشتملت العبارة على خمسة صوامت شديدة، ترددت ثماني مرات، هي (الهمزة، والقاف، والباء، والتاء، والطاء)، وأربعة صوامت رخوة ترددت سبع مرات وهي (الشين، والعين، والهاء، والزاي).

- النموذج الرابع: قال البخاري: «عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ يَهُودِيًّا رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ، قِيلَ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِكِ، أَفُلَانٌ، أَفُلَانٌ؟ حَتَّى سُمِّيَ اليَهُودِيُّ، فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا، فَأُخِذَ اليَهُودِيُّ، فَاعْتَرَفَ، «فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرُضَّ رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ»[29].

ارتكز معنى الحديث على لفظة (رضّ) التي تعني التكسر والتحطم، والتي تكررت مرتين، وقد ساهم تشكيلها الصوتي في بيان المقصد من الحديث، إذ تشكلت من صوت الراء وهو صوت مجهور تكراري يرسم صورة الاهتزاز والعنف الذي نتج عن رض الرأس، فأحالت صفاته على صورة الضرب المستمر والمتكرر الذي تعرضت له الجارية بدءا، واليهودي ثانيا، كما ساهم صوت الضاد وهو «صوت شديد مجهور انفجاري»[30] في تصوير قوة ذلك الرض، وما رافقه من شدة وعنف حتى بلغ الألم منتهاه.

ثانيا: البيان بالأصوات المهموسة والرخوة

- النموذج الأول: قال البخاري: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ»»[31].

يتعلق الحديث النبوي الشريف بما يحدّث به الإنسان نفسه، فذلك مما يعفو عنه الله عز وجل إلى حين أن يعمله صاحبه، والأمر نفسه ينطبق على حالة النطق به، فإنه مما يعفو عنه عز وجل حتى ينطق به مضمر صاحبه.

وقد ارتكز مقصد هذا الحديث النبوي على لفظة (وسوست)، والوسوسة تعني «حَدِيث النَّفس والأفكار، وَقد وسوست إِلَيْهِ نَفسه وَسْوَسَة ووسواساً بِالْكَسْرِ، وَهُوَ بِالْفَتْح الِاسْم، ووسوس إِذا تكلم بِكَلَام لم يُبينهُ، حَاصله أَن الوسوسة تردد الشَّيْء فِي النَّفس من غير أَن تطمئِن إِلَيْهِ وتستقر عِنْده»[32]، وقد ساهم تشكيلها الصوتي في الكشف عن مراد الحديث، فاللفظة تتألف من صوت "السين وهي صوت رخو مهموس مرقق لا يحدث عند النطق به رنينا مسموعا"[33]، وقد ناسبت صفات الهمس والخفاء معنى الوسوسة الصادرة عن الشيطان الملحاح للإنسان على فعل الرذيلة، فيحاكي الإنسانُ أفكارَ الشيطان بصوت خافت ضعيف لا يتجاوز صاحبه خوفا من الله وعقابه، فتجاوز بذلك الله عن من لم يخرج هذه الأفكار الدخيلة حيز التنفيذ.

- النموذج الثاني: قال البخاري: «عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ التِفَاتِ الرَّجُلِ فِي الصَّلاَةِ، فَقَالَ: «هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ أَحَدِكُمْ»»[34].

أبان الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن كراهته للالتفات في الصلاة، وذلك لأن «من الْتفت ذهب عَنهُ الْخُشُوع فاستعير لذهابه اختلاس الشَّيْطَان تصويرا لقبح تِلْكَ الفعلة أَن الْمُصَلِّي مُسْتَغْرق فِي مُنَاجَاة ربه وَأَنه تَعَالَى يقبل عَلَيْهِ والشيطان كالراصد ينْتَظر فَوَات تِلْكَ الْحَالة عَنهُ فَإِذا الْتفت الْمُصَلِّي اغتنم الفرصة فيختلسها مِنْهُ»[35].

ولأداء هذه الوظيفة البيانية تم تغليب الأصوات المهموسة على الأصوات المجهورة، فيما يخص الصوامت المهموسة فعددها تسعة، وقد ترددت أربع عشرة مرة كالآتي: الخاء (مرتان)، التاء (ثلاث مرات)، السين (مرتان)، الشين (مرتان)، الطاء (مرة واحدة)، الصاد (مرة واحدة)، الهمزة (مرة واحدة)، الحاء (مرة واحدة)، الكاف (مرة واحدة).

أما الصوامت المجهورة فقد كان عددها سبعة، وترددت ثلاث عشرة مرة، وهي كالآتي: الهاء (مرة واحدة)، الواو (مرة واحدة)، اللام (ثلاث مرات)، النون (ثلاث مرات)، الياء (مرتان)، الميم (مرتان)، الدال (مرة واحدة).

والذي نستشفه من خلال هذه العملية الإحصائية أن استعمال الأصوات المهموسة فاق الأصوات المجهورة، فذلك ما اقتضته عملية الفهم والإفهام، وقد جسدت هذه الأصوات المهموسة التي تكون في خفاءٍ دلالة الاختلاس الشيطاني من صلاة المصلي دون تنبه منه، أي السلب في نُهزة ومخاتلة.

- النموذج الثالث: قال البخاري: «عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ بَعْضَهُمْ، يَمْسَحُهُ بِيَمِينِهِ: «أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا»»[36].

إن تأملنا لهذا الحديث النبوي لأول وهلة يجعلنا نستشعر جوا من الهمس والضعف والفتور، وهو تجسيد لحالة الوهن التي يكون عليها المريض من جهة، وللين في تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم ورأفته بالمريض مراعاة لحاله، ومما ساهم في ذلك توظيف ثلاثة أصوات رخوة مهموسة تظافرت فيما بينها وكانت الأكثر ترددا، وهي:

- الفاء: تردد خمس مرات، وهو صوت شفوي أسناني رخو مهموس مرقق.
- الشين: تردد كذلك خمس مرات، وهو صوت غاري رخو مهموس.
- السين: تردد ثلاث مرات، وهو صوت أسناني لثوي رخو مهموس.
- النموذج الرابع: قال البخاري: «قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَأْثُرُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَتَحسَّسوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا»[37].

في هذا الحديث أمر بالصحبة والألفة من جهة، ونهي عن الظن، والتحسس، والحسد، والتدابر، والتباغض من جهة ثانية، حتى لا تفترق الكلمة ويتشتت الأمر، ولبيان المنهي عنه في الحديث النبوي الشريف استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم الأصوات المهموسة بكثرة خاصة في الألفاظ التي تشكل المقصد الأساسي للحديث وهي (تحسسوا، تجسسوا، تحاسدوا)، إذ تكررت هذه الأصوات عشر مرات كالآتي: التاء (ثلاث مرات)، الحاء (مرتان)، السين (خمس مرات).

وفي مقابل ذلك نجد أن هذه الألفاظ لم تتضمن سوى صامتين مجهورين هما (الجيم والدال)، وما تبقى عبارة عن أصوات مهموسة اقتضتها الوظيفة البيانية بما يتناسب ودلالة الكلمات المعجمية:

- [حسس] الحِسُّ والحَسيسُ: الصوت الخفي. وقال الله تعالى: {لا يَسْمَعونَ حسيسها}[38].
- [جسس] جسست الاخبار وتجسستها، أي تفحصت عنها. ومنه الجاسوس"[39].
- [حسد] الحَسَد: أن تتمنَّى زوال نعمة المحسود إليكَ"[40].

وجميع هذه المعاني يكون في الخفاء. في حين نجد أن الكلمتين (تدابروا)، و(تباغضوا)، قد غلب عليهما استعمال الأصوات المجهورة، ولم تتعد الأصوات المهموسة فيهما صوتا واحدا هو صوت التاء، وقد توزعت الأصوات المجهورة على النحو الآتي: الدال (مرة واحدة)، الباء (مرة واحدة)، الراء (مرة واحدة)، الغين (مرة واحدة)، الضاد (مرة واحدة).

وتغليب الأصوات المجهورة في هاتين الكلمتين كان من اقتضاء الدلالة المعجمية لهما إذ نجد أن:

- [بغض] البُغْضُ: ضدُّ الحبِّ"[41].
- تَدابَرَ القومُ: أي تقاطعوا"[42].

وهذان المعنيان يكونان في الجهر والعلن لا في الخفاء والستر.

- النموذج الخامس: قال البخاري: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُ شَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»»[43].

يدعو الرسول في هذا الحديث إلى الاعتدال في أداء العبادات وعدم التشدد فيها؛ وذلك لأن «هذا الدين الذي هو دين الإسلام يمتاز على غيره من الأديان السماوية بسهولة أحكامه، وعدم خروجها عن الطاقة البشرية، وملاءمتها للفطرة الإنسانية، وتجردها وخلوها من التكاليف الشاقة، التي كانت في الشرائع السابقة فقد كان الرجل من بني إسرائيل إذا أذنب ذنباً لا تقبل توبته إلا بقتله، وإذا أصابته النجاسة لا يطهر إلا بقطع ما أصابته من ثوب أو بدن، أما هذا الدين فقد تنزه عن كل ذلك»[44].

فجاء هذا الحديث بيانا للمسلم في أداء عباداته، إذ لا يجب أن يجهد نفسه، لأن ذلك قد يؤدي إلى العجز وبالتالي الانقطاع، وإنما يجب التلطف والتدرج حتى يدوم العمل ولا ينقطع، وقد ارتكز هذا المقصد على لفظة (يسر) التي يدل معناها على التخفيف والاعتدال، وقد ساهم نسيجها الصوتي في رسم المعنى خاصة تشكلها من صوت السين، "وهو صوت مهموس رخو مرقق خفيف عند النطق به"[45] ناسب مقصد الخفة في أداء العبادات والاعتدال فيه.

ثالثا: البيان بالأصوات المفخمة والشديدة

- النموذج الأول: قال البخاري: «عن سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا وُضِعَتِ الجَنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ "»[46].

يبيّن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث حال الميت في جنازته، فإن كان من الفائزين تمنى وصوله إلى القبر بسرعة للتمتع بالنعيم المنتظر، وإن كان من غير الفائزين كره الوصول، فيقول: (يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟)؛ وفي هذا تعبير عن هول الموقف وسوء المصير الذي ينتظره. والذي ساهم في أداء هذه الوظيفة البيانية لفظة (صعق)؛ التي تعني « أَن يُغشى عَلَى الإِنسان مِنْ صَوْتٍ شَدِيدٍ يَسْمَعُهُ وَرُبَّمَا مَاتَ مِنْهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي الْمَوْتِ كَثِيرًا»[47]، وقد ناسب تشكيلها الصوتي معناها الذي أدته داخل الحديث، إذ نجدها قد تشكلت من صوت الصاد، وهو صوت مفخم، إذ ساهمت سمة التفخيم في بيان هول الموقف وضخامته، كما أنه صوت صفيري، «إذ يترتب على ضيق المجرى أن النفس في أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعا من الصفير أو الحفيف تختلف نسبته تبعا لنسبة ضيق المجرى، فمثلا حين يتصل أول اللسان بأصول الثنايا، ب إذ يكون بينهما فراغ كاف لمرور الهواء نسمع ذلك الصفير»[48]، وصفة الصفير التي تميز بها هذا الصوت رسمت بنغمها الصارم ذلك الأزيز المشدد عند السمع، وبيّنت خطورة ذلك الموقف وعظمته وشدته.

بالإضافة إلى اشتمال هذه اللفظة على صوت القاف، وهو صوت مفخم ومن أصوات القلقلة، فأحال بسماته على جبروت هذا الموقف، وصور حالة الاضطراب التي تصيب الإنسان أثناء سماعه لهذه الصيحة، وما يظهر عليه من رهبة واهتزاز وخوف، وقد سانده في ذلك صوت العين المجهور الذي مثّل الدلالة نفسها.

- النموذج الثاني: قال البخاري: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:... وَأَمَّا المُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»[49].

يبين الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أحوال المنافق والكافر أثناء سؤال القبر، من خلال عبارة (ويُضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة)، فتشكلت من أصوات ناسبت طبيعتها المفخمة قسوة عذابهم وشدته، بكيفية تجعل المتلقي يتحسس صوت المطارق الفظيع، إذ إنه «لو ضرب بها جبل لصار، ترابا وفي حديث أسماء ويسلط عليه دابة في قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل غرب البعير تضربه ما شاء الله صماء لا تسمع صوته فترحمه... وفي حديث البراء فينادي مناد من السماء أفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها»[50].

وهذه الأصوات هي:

- الضاد: وقد تكرر مرتين، وهو صوت لثوي شديد مهموس مفخم.
- الطاء: ورد مرة واحدة، وهو صوت أسناني لثوي شديد مهموس مفخم.

- الصاد: وقد تكرر مرتين، وهو صوت أسناني لثوي رخو مهموس مفخم.

وقد تساندت هذه الأصوات في أداء وظيفتها البيانية بأصوات أخرى شديدة انفجارية وهي (الباء، والقاف، والدال)، وبتأملنا النسيج الصوتي الموظف في هذا الحديث نستشف غلبة الأصوات الشديدة على الأصوات الرخوة، فقد وردت صفة الشدة في أحد عشرة صوتا كالآتي: الضاد (مرتان)، الباء (ثلاث مرات)، الطاء (مرة واحدة)، القاف (مرة واحدة)، الدال (مرتان)، التاء (مرتان).

في حين نجد أن عدد الأصوات الرخوة لم يتجاوز ثلاثة أصوات وردت ست مرات كالآتي: الحاء (ثلاث مرات)، الفاء (مرة واحدة)، الصاد (مرتان).

ومن ثم فإن غلبة الأصوات الشديدة والمفخمة قربت المتلقي من صورة العذاب الشديد الذي يلحق بالمنافق والكافر، وهذا يؤكد لنا وظيفة الصوت البيانية أو دلالة الصوت، «فهو إن لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه وإيحاء، ويثير في النفس جوا يهيئ لقبول المعنى، ويوجه إليه ويوحي به»[51].

وهذا ما يؤكده أحمد الشايب حينما أشار إلى علاقة التناسب بين اللفظ والمعنى، إذ يقول: «يجب أن تكون التراكيب والعبارات ذات نغمة عامة ملائمة ما يوصف سواء أكان منظرا رائعا يبعث الإعجاب أو معركة حامية تثير الرهبة، أو حوادث متتابعة تملك العقل، أو يأسا قاتلا أو أملا عريضا ب إذ يكون الأسلوب اللفظي حكاية الأسلوب المعنوي، ويتحقق بذلك ائتلاف اللفظ والمعنى»[52].

- النموذج الثالث: قال البخاري: «عن أَبِي سَلَمَةَ قال: كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُنَاسٍ خُصُومَةٌ فَذَكَرَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَلَمَةَ اجْتَنِبِ الأَرْضَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»»[53].

يبين الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث «تحريم غصب الأرض، وأنَّ من أخذ شيئًا منها ظلمًا عُذِّب بحمله يوم القيامة في عنقه»[54]، ويتوعد هؤلاء الظالمين الذين يقتطعون من أراضي غيرهم بالعذاب الشديد يوم القيامة، ولتصوير هذا العذاب ورسمه في ذهن المتلقي اعتمد صلى الله عليه وسلم أصواتا مفخمة تتناسب ودلالة العذاب الأليم وهي:

- الظاء: وهو صوت أسناني رخو مجهور مفخم.
- الطاء: صوت أسناني لثوي شديد مهموس مفخم.
- الضاد: صوت أسناني لثوي شديد مجهور مفخم.

والمتأمل لهذه الأصوات يجدها قد توزعت بانتظام في هذا الحديث، إذ وردت في بدايته (من ظلم)، ووسطه (طوقه)، ونهايته (أرضين)، وهي ألفاظ طغت فيها الأصوات الشديدة مما ساهم في تحسيس المخاطب بالشدة والغلظة في معنى الحديث بأكمله، وهي ثمانية أصوات توزعت على الشكل الآتي: القاف (مرتان)، الدال (مرة واحدة)، الباء (مرتان)، الطاء (مرة واحدة)، الهمزة (مرة واحدة)، الضاد (مرة واحدة).

في حين نجد أن الأصوات الرخوة لم تتعد خمسة صوامت وهي: الظاء، والشين، والهاء، والسين، والعين، وقد ورد كل واحد منها مرة واحدة.

ومما ساهم في بيان صورة "الطوق" صوتيا، صوت الطاء المضمومة التي يتلوها صوت الواو المشددة والضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها، وهي "صائت خلفي منغلق مضموم"[55]، أي أن شكل الشفتين يكون مستديرا حين النطق بها، وفي الضم والاستدارة محاكاة لفعل التطويق في لفظة "طُوِّقَهُ"، "فالتطويق معناه الاستدارة"[56].

- النموذج الرابع: قال البخاري: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ»[57].

يبين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث جهنم وهي تطلب المزيد، أي «أن النار لا يزال يلقى فيها، وهي تقول كما قال تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}[58]، يعني تطلب الزيادة؛ لأنها لم تمتلئ، فيضع الرب عزّ وجلّ عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض أي ينضم بعضها إلى بعض وتقول ((قط قط)) أي حسبي، حسبي، لا أريد زيادة فصارت النار تملأ بهذه الطريقة» حتى تتضايق ولا يبقى فيها متسع لغير من فيها.

ولبيان هذا المشهد الرهيب والفظيع استعمل عليه الصلاة والسلام الأصوات المفخمة وهي: الضاد التي ترددت ثلاث مرات، والطاء التي ترددت مرتين، فناسبت بصفتها (النطقية) المطبقة مشهد التئام وتضايق جهنم على من فيها، ولبيان شدة ذلك الموقف أيضا نجد استعمال الأصوات الشديدة، ففي عبارة "يضع رب العزة فيها قدمه" إلى نهاية الحديث، تكررت الأصوات الشديدة ثمانية عشر مرة، موزعة على الشكل الآتي: الضاد (ثلاث مرات)، الباء (أربع مرات)، التاء (ثلاث مرات)، القاف (أربع مرات)، الدال (مرة واحدة)، الطاء (مرتان)، الكاف (مرة واحدة).

في حين نجد أن الأصوات الرخوة لم تتجاوز خمس عشرة صامتا وهي كالآتي: العين (خمس مرات)، الزاي (خمس مرات)، الفاء (مرتان)، الهاء (ثلاث مرات).

- النموذج الخامس: قال البخاري: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُتَصَدِّقِ مَثَلُ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، قَدِ اضْطَرَّتْ أَيْدِيَهُمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَكُلَّمَا هَمَّ المُتَصَدِّقُ بِصَدَقَتِهِ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تُعَفِّيَ أَثَرَهُ، وَكُلَّمَا هَمَّ البَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ انْقَبَضَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ إِلَى صَاحِبَتِهَا وَتَقَلَّصَتْ عَلَيْهِ، وَانْضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَى تَرَاقِيهِ»»[59].

يبين الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث شخصيتين في المجتمع، «تتخيل هيأتهما في هذا الحديث وهما (البخيل والمنفق) اللذان يمثلان صراعا ضديا...ويبدأ المشهد بارتداء هذين جبتين من حديد، فالمنفق الذي يرتدي تلك الجبة، تغطي جسمه من الثديين إلى الترتوقين، فهي تتسع وتتمدد كلما زاد إنفاقه حتى تختفي أصابع قدميه، وتنمحي آثار خطواته، لطولها وتمددها، وأما البخيل فإن الجبة تشتد عليه وتلتصق بجسده، فلا يستطيع الحركة بحرية، فباتت ثقلا ووبالا عليه من غير وقاية له وتحصين لبدنه، وتخصيص الجبة بالحديد لشدة الصلابة التي يتصف بها، والتي تمتزج بصلابة النفس الإنسانية، فلابد للمنفق أن يجعلها لينة ويروضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد، أما البخيل فهو يتمسك بصلابة الحديد فيطويه، فلا حراك له، والجبة تصبح بعد أن كانت إيجابية تأبى أن تتسع في البخيل، فتغدو لحظة سلبية عليه»[60].

وقد استعمل عليه الصلاة والسلام أربعة أفعال لوصف الجبة، فعل وصف به الجبة عند المتصدق، وهو "اتسعت"، وثلاثة أفعال لوصف جبة البخيل، وهي "انقبضت"، "تقلصت"، "انضمّت"، وقد ناسبت أصوات كل فعل دلالته، إذ تشكل الفعل "اتسعت" من أصوات منفتحة، والانفتاح هو «انفراج بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بالحرف، فلا ينحصر الصوت بينهما»[61]. وقد ناسبت صفة الانفتاح والانفراج الدلالة المعجمية للفعل "اتسعت"، إذ إن التوسيع خلاف التضييق، «تقول: وسعت الشئ فاتسع واستوسع، أي صار واسِعاً»[62].

أما في وصف جبة البخيل فقد تم اعتماد الأفعال التالية (انقبضت، تقلصت، انضمت) التي تضمنت جميعها صوتا مطبقا مفخما، إذ نجد الضاد في "انقبضت"، والصاد في "تقلصت"، والضاد في "انضمت" على التوالي، فناسبت صفة الإطباق وهو «التصاق جملة أو طائفة من اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف، ب إذ ينحصر الصوت بينهما»[63] دلالة الأفعال؛ ف«الانقِباضُ: خلافُ الانبساط»[64]، «وقَلَصَ وقَلَّصَ وتَقَلَّصَ، كله بمعنى انضمَّ وانزوى»[65]، و«ضممت الشيء إلى الشيء فانْضَمَّ إليه، وضَامَّهُ. وتضامَّ القومُ، إذا انْضَمَّ بعضهم إلى بعض»[66].

كما تضمنت أفعال هذا الحديث مجموعة من الأصوات الشديدة، وهي: التاء، والقاف، والباء، والضاد، وقد ترددت تسع مرات مما ساهم في تصوير شدة الضيق الذي يعيشه البخيل.

- النموذج السادس: قال البخاري: «عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ " يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ"»[67].

يبين الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث صفات الله تعالى وأفعاله، التي توحي جميعها بقوته وجبروته، وهو ما ورد أيضا في قول الله عز وجل: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}[68]، ولذلك انتقى الرسول صلى الله عليه وسلم الأصوات التي تقرب أذهان مخاطَبيه من قوته عز وجل، وهي أصوات منها ما هو مفخم وهو ما نجده في ثلاثة أصوات هي: الضاد الذي تردد مرتين، والطاء، ومنها الأصوات الشديدة التي وردت ثماني مرات، موزعة على الشكل الآتي: القاف (مرة واحدة)، الباء (مرتان)، الضاد (مرتان)، الهمزة (مرتان)، الطاء (مرة واحدة).

في حين نجد أن عدد الأصوات الرخوة لم يتجاوز صوتين، تردد كل واحد منهما مرتين هما: الهاء والسين.

خاتمة:

بناء على ما سبق نستطيع القول أن أي خطاب إنما يتم من أصغر وحدة لغوية دالة وهي الصوت، إذ يُعد أول لبنة من لبنات بناء أي خطاب، وأول مدخل من مداخل فهمه، لما يحققه من موسيقى للفظ من جهة، وتناغم الحروف في تركيبها مع بعضها من جهة أخرى، فتكون الكلمات المشتملة على هذه الأصوات متوازنة النبرات، وتراكيب البيان متلائمة الأصوات، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فطنا، يختار لكل حالة مرادة أصواتا خاصة لا يمكن استبدالها بغيرها. ويمكن بعد هذه الرحلة الصوتية القصيرة في بعض النماذج من الحديث النبوي الشريف الوقوف على خلاصات نوردها كالآتي:

- ✓ الصوت مادة خام يتم تشكيلها حسب ما تقتضيه الحاجة التعبيرية ومراد المتكلم.
- ✓ حل كل صوت في الحديث النبوي مكانه وموضعه وفق نظم بديع ونسق عجيب يتناوب بين الجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يستطيع أن يصل إليها أي كلام آخر بعد كلام الله تعالى.
- ✓ أدت الأصوات المجهورة والمهموسة قوة تعبيرية للحديث النبوي الشريف، وغالبا ما كانت الأصوات المجهورة ترد في سياق التحذير والتنبيه نظرا لتميزها بالشدة والقوة، أما الأصوات المهموسة فغالبا ما تستعمل في سياق العفو والرحمة والرأفة، نظرا لتميزها بصفة الخفاء والحس الخفيف على مستوى النطق.

الهوامش:

- الفراهيدي، العين، تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال. ج7/ص146.[1]
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط3، 1414هـ، ج2/ص57.[2]
- [3] – الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، ج2/ص12.
- ابن جني، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، ط1، 2000م، ج1/ص19.[4]
- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3، 1997م، ص84.[5]
- ابن منظور، لسان العرب، ج13/ ص 68-69.[6]
- الشافعي، الرسالة، تح:أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، ط1، 1940م، ص21.[7]
- الجاحظ، البيان والتبيين،ج1/ص82.[8]
- المصدر نفسه، ج1/ ص83.[9]
- ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، ج1/ص34.[10]
- سورة مريم: الآية 3.[11]
- ابن جني، الخصائص، ج2/ص148.[12]
- المصدر نفسه، ج2/ص148.[13]
- المصدر نفسه، ج2/ص148.[14]
- ابن جني، الخصائص، ج2/ص154.[15]
- المصدر نفسه، ج2/ص155.[16]
- المصدر نفسه، ج1/ص66.[17]
- ابن منظور، لسان العرب، ج12/ص182.[18]
- المصدر نفسه، ج12/ص487.[19]
- انظر ابن منظور، لسان العرب، ج2/ص618.[20]
- صحيح البخاري، رقم الحديث (7124)، ج9/ص59.[21]

– ابن منظور، لسان العرب، ج9/ص112.[22]
– ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر، ص57– 58.[23]
– المرجع نفسه، ص70.[24]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (2457)، ج3/ص131.[25]
– محمد بن صالح العثيمين، فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، تح: صبحي بن محمد رمضان، المكتبة الإسلامية، ط1، 2006م، ج6/ص416.[26]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (1403)، ج2/ص106.[27]
– موسى شاهين لاشين، المنهل الحديث في شرح الحديث، دار المدار الإسلامي، ط1، 2002م، ج2/ص133.[28]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (2413)، ج3/ص121. [29]
– ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص51.[30]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (2528)، ج3/ص145.[31]
– العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج13/ص89. [32]
– ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص68.[33]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (3291)، ج4/ص125.[34]
– العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج5/ص310.[35]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (5750)، ج7/ص134. [36]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (5143)، ج7/ص19.[37]
– الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج3/ص916.[38]
– المصدر نفسه، ج3/ص913. [39]
– المصدر نفسه، ج2/ص465.[40]
– الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج3/ص1066. [41]
– المصدر نفسه، ج2/ص655.[42]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (39)، ج1/ص19.[43]
– حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، 1990م، ج1/ص121-121.[44]
– ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص68.[45]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (1314)، ج2/ص85.[46]
– ابن منظور، لسان العرب، ج10/ص198.[47]
– ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص25.[48]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (1374)، ج2/ص98.[49]
– ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة – بيروت، 1379، ج3/ص239-240. [50]
– محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، ص261.[51]
– أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط13، 1999، ص106.[52]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (2453)، ج3/ص130.[53]
– فيصل النجدي، تطريز رياض الصالحين، ت: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2002م، ص165.[54]
– مصطفى حركات، اللسانيات العامة وقضايا العربية، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ط1، 2014م، ص18.[55]
– أنظر ابن منظور، لسان العرب، ج10/ص231.[56]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (6661)، ج8/ص143.[57]
– سورة ق: الآية 30.[58]
– صحيح البخاري، رقم الحديث (2917)، ج4/ص412.[59]

– مازن موفق الخيرو، جماليات الصورة الفنية في صحيح البخاري، ط1، 2014م، ص51.[60]

– محمد عصام مفلح القضاة، الواضح في أحكام التجويد، مراجعة: أحمد خالد شكري وأحمد محمد القضاة، دار النفائس، ص47.[61]

– الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج3/ص1298.[62]

– محمد عصام مفلح القضاة، الواضح في أحكام التجويد، ص46.[63]

– الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج3/ص1100.[64]

– المصدر نفسه، ج3/ص1053.[65]

– المصدر نفسه، ج5/ص1972.[66]

– صحيح البخاري، رقم الحديث (4812)، ج6/ص126.[67]

– سورة الزمر: الآية67.[68]